الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ردانتي شاعر الطليان

— ٣ —

ولما كنت أوضحت اعتقادي في الشيخ ابن القارح ايضاً ، فلا بأس من تعزيزه في هذا المقام .

قال ابو العلاء في تضاعيف جوابه : واما شكواه اليّ فانني وإياه لكما قيل في المثل « والثكلى تعين الثكلى » كلانا بحمد الله مُضِلّ فعلى من نحمل وعلى من نُدِلّ ... ثم انه لم يترك اسم ملحدٍ اوزنديق في المخضرمين والاسلام الا ذكره له مع أبيات او قصائد هي أبلغ مافالوه في عقيدة كفرهم وإلحادهم ، ثم قال بعد ذلك : ولم يزل الالحاد في بني آدم على مرّ الدهور .. وبعض العلماء يقول ان سادات قريش كانوا زنادقة وما أجدرهم بذلك وقال شاعرهم يرثي قتلى بدر :

(ألمّتْ بالتحية ام بكرٍ فحيّوا امّ بكر بالسلام)

الى ان يقول : (الا من بلغ الرحمان عني باني تاركٌ شهر الصيامِ)

(أيوعدنا ابن كبشة ان سنحيا وكيف حياة اصداء وهامِ)

(أتترك انْ تردّ الموت عني وتحييني اذا بليت عظامي)

ثم يقول : ولما أجلى عمر بن الخطاب رحمة الله عليه اهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين ، فيقال ان رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن اد كن قال في ذلك :

(يصول ابو حفص علينا بدرّةٍ رويدك ان المرء يطفو و يرسب)

(كأنك لم تتبع حمولةَ ماقطٍ لتشبعَ ان الزاد شيءٌ محبّبُ)

(فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتمُ علينا ولكن دولةٌ ثم تذهبُ)

(ونحن سبقناكم الى المين فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو اكذبُ)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(مشيتم على آثارنا في طريقنا وبُغيتكم في ان تسودوا وتُرهبوا)

وكقوله بعد ذلك : واما غيظه على الزنادقة والملحدين فأجرّه الله عليه كما أجرّه على الظمأ في طريق مكة واصطلاء الشمس بعرفة ومبيته بالمزدلفة ... وكثير مثله قبله وبعده .

فاذا نظر الناقد في ما تقدم بعين لا يطرفها الرياء ، وحكّم رأياً لا تتجاذبه الاهواء يجد لا مندوحة عن القول معنا في مذهب الشيخين ، وقد ورد في الامثال السائرة : من أحب شيئاً اكثر من ذكره : وهذا هو شأن ابي العلاء في هذه الرسالة وسواها .

ونرجع الى الكلام عن الرسالة ، فان أهم ما يُنتقد عليه فيها ، حشوها بلفظ كثير من غريب اللغة وعويصها ، حتى ليحتاج العالم معه الى مراجعة المعاجم الكبيرة ، وقد يفسر بعض اللفظ في خلال الجملة ، مما يفقد الكلام كثيراً من فكاهته ، على اننا ننتقد على الرجل صنعه ونحن في القرن العشرين ، وبيننا وبينه عشرة قرون ، وانت لست تجهل ان لكل عصر طريقة من التعبير ، وضرباً من الانشاء يألفها اهله ، كما أوضحنا ذلك في غير هذا المبحث[1] . ثم ان الرسالة أنشئت لغرض مخصوص فلا ينكر على منشئها إغرابه فيها وكلها عجيب في عجيب وكأنه قصد فيها المشاكلة التامة .

اذ لما كانت المخاطبة في أغلبها مع شعراء الجاهلية ، فقد لا يخطئ الظن اذا قلنا انه أراد ان لا يكون لفظه بعيداً عن ألفاظهم ، لاننا نرى شعره في سقط الزند بل في نفس اللزوميات ، من اكثر شعر ذلك العصر وضوحاً ، مع انه مقيد بالوزن والقافية ولزوم مالا يلزم وحصر المعنى في جمل محدودة ، وقد يكون أراد الافادة بذكر الكلم العويص وتفسير اكثره كما فعل ، وانت تعلم ان معاجم اللغة (وقد كانت قليلة جداً) وكتب علومها ، لم تكن متيسرة لاكثر محبي العلم وطلابه في تلك القرون .

وعلى الجملة فان الرسالة قد جمعت من بدائع الابتكار ، وبدائه الخيال ، ودقائق التصور ، وغرائب التشخيص ، ومحاسن التصوير ، ولطائف الانتقال ، ورائع المنظوم ، وإشارات الى كثير من العلوم والفنون والاستقصاء في شاذ اللغة وغريبها ، والتبحر

(١) انظر كتابنا منهل الوراد في علم الانتقاد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في عقباتها ورحيبها ، طائفة وافرة ، وفوائد باهرة ، فلا تكاد تنتهي من حسن حتى يبدو لك ما هو أحسن ، ولا تمر بفكاهة حتى تقع على ماهو أطيب منها وأفكه ، ولا بغريبة حتى تقرأ ماهو منها أغرب ، فلا بدع اذا ما تناقلها الركبان وتهاداها أهل كل زمان ، و باتت تحلي الاذان في كل مكان .

ولا ريب في شيوعة رسالة الغفران منذ عهد مؤلفها وتداولها بين أهل المغرب ، ولا سيما اهل الاندلس ، وكان يحكمها لذلك العهد ، ملوك الفضل وبدور السعد بنو عبّاد ، ثم حكمها بعدهم يوسف بن تاشفين قال التيمي في تاريخه « فانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » وذكر أسماء طائفة كبيرة من الأعلام .

ثم حكمها بنو عبد المؤمن قال التيمي في كلامه عن ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن « ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة اهل علم النظر الى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملك المغرب . وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين ابو بكر محمد بن طُفَيل احد فلاسفة المسلمين ، قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة ، منهم ابو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه ... ولم يزل ابو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار .. وهو الذي نبهه على ابي الوليد محمد بن رشد ...

فاذا علمت ذلك ان مؤلفاته ومؤلفات من سبقه من كبار فلاسفة العرب ، قد ترجمها الى اللاتينية او الى العبرانية ومنها الى اللاتينية علماء اليهود من العرب في الاندلس ، وان الاندلس كانت منذ وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٩١٢ م (سنة ٣٥٠ هجرية) منتجع العلوم ومحط رحال العلماء من كل صقع ، وكان لا يظهر كتاب علم او ديوان شعر لنابغة من نوابغ العرب في المشرق الا تهاداه اكابر الاندلس وعلماؤهم واستنسخوه وتداولوه ، واذا علمت ان الامم الافرنجية كانت تأخذ العلوم عن إسلام الاندلس منذ القرن العاشر ، اي قبل وفاة ابي العلاء بخمسين سنة . قال في موسوعات العلوم الفرنسوية الكبيرة ما تعريبه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد عرف أمم اور با يومئذ « اي عند مخالطتهم عرب الاندلس » أنّ من كانوا يزعمونهم بربراً ، هم أرقى كعباً في المعارف من اور با المسيحية ، وانه يجب الإقرار طوعاً او كرهاً ، بان العرب كانوا يعرفون فنون السلم كمعرفتهم فنون الحرب ، وان مدرسة قرطبة التي طبّقت شهرتها الآفاق ، قد تخطت بغاية السرعة جبال البيرينيه ، فسار اليها احد الشمامسة من اهالي اوفيرن وهو المدعو جيربير ، فأخذ العلوم عن الاسلام ولم يكن ذلك ليصدّه عن الارتقاء الى عرش البابوية باسم سيلفستر الثاني ، ثم قام بعده بثلاثة قرون باكون احد مشاهير العلماء في القرون المتوسطة فنصح وافر النصح بتعلم اللغة العربية بعد ان درسها هو . ومن أقواله المأثورة : ان الله يحب الحكمة لمن يشاء ولم ير ان يهبها للاتين وان الفلسفة لم تكمل منذ أقدم العصور الا على دفعات ثلاث ، وذلك عند العبرانيين ، واليونان ، ثم العرب : وفيها ايضاً . ثم قام بعده ببرهة من الزمن البابا اكليمندوس الخامس فأمر بتدريس العربية في مدارس باريس واكسفورد وبولونيا وسلامنك ، ومما لا ريب فيه انه كان قد ترجم كثير من الكتب العربية وانما الضعف اخذ بخنقها فتعاورتها الاغلاط ، لانها ترجمة عن اصلها ترجمة حرفية دون تضلع من العلم او خبرة في النقد ، وذلك بان يضع المترجم الكلمة اللاتينية تحت اللفظ العربي ، وعندما كان يفوته فهم الاصل العربي ، كان يدعه دون ترجمة ، وكم من كتاب نشر باسم استاذ في احدي المدارس يومئذ ولم يكن له فيه سوى اسمه ، بيد انه وجدت كتب أخرى كان حظها من حسن الترجمة أوفر ، وتلك باقلام بعض متنصرة اليهود ... وقال بعد ذلك : فقد رأيت كم كانت أنوار المعارف التي أنارت المشرق شديدة الضياء ، وان ماوصل منها الى عالمنا الغربي ، لم يكن الا شفقاً من ذلك النور ، اذ انه لم يصل الينا الا عند تراجع العرب وانحطاطهم واضمحلال دولهم : انتهى محصل ماورد في الموسوعات الكبيرة المذكورة .

فاذا علمت ذلك كله ، لن يبقى في نفسك سبيل الى الشك في ترجمة رسالة الغفران في جملة الكتب الى اللاتينية . وقبل ان نرى في الموازنة بين رسالة الغفران والأُلوهة المشهورة بالأُلوهة الالهية لدانتي شاعر الطليان ، يجدر بنا ان نلم شيئاً من ترجمته كما فعلنا ببسط شيء من ترجمة المعري للموازنة بينهما .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولد دانتي الليجييري في مدينة فلورنسا سنة ١٢٦٥ اي بعد وفاة ابي العلاء بمئتين وثمان سنين ، ومات سنة ١٣٢١ في السادسة والخمسين من عمره ، ولم يمر على وفاته خمسون سنة حتى تداخلت ترجمته الخرافات ، وتعاورتها ألسن الجماعات ، ثم لم تزل تتلفف وتتكاثف ككرة الثلج حتى أواخر القرن الخامس عشر .

غير ان ذلك لم يقف في طريق المحققين ، فقد بحثوا ودققوا وأطالوا الاستقصاء ، فأماطوا الاستار عن كثير من أحوال الرجل ومزقوا برافع الخرافات ، التي نسجها اليه الرواة ، حتى عده العامة بعد وفاته ببضع سنين ، في مصاف الاولياء ، وجعله بعضهم في منزلة الشياطين .

وجملة خبره انه من أسرة لها في وطنها مقام معروف وان لم تكن عريقة في المجد ، وقيل انه تجند سنة ١٢٨٨ للدفاع عن وطنه وحارب فيمن حارب من قومه ، وأهم حوادث شبابه كان عشقه الذي خلد تذكاره في شعره المعنون بـ « الحياة الجديدة » وفي سنة ١٢٩٥ تزوج وولد له ولدان وبنتان في سبع سنين ، وعقيب زواجه اشتغل بالسياسة ووجه اليها كل قواه تابعاً حزب أسلافه ، ولم ينل منصباً سامياً كما جاء في الروايات التي تحلت بها ترجمته السائرة .

قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net